

التأويل النحوي عند علي أبي المكارم من خلال مؤلفاته

Grammatical interpretation according to Ali Abi al-Makarem, as seen through his writings

د. بوزكري الحفناوي

جامعة الجلفة (الجزائر)، e.bouzekri@univ-djelfa.dz

تاريخ القبول: 2026/02/08

تاريخ الإستلام: 2025 / 12 / 19

ملخص: يتناول هذا المقال التأويل النحوي عند علي أبي المكارم من خلال مؤلفاته المتعددة، حيث يبين مكانته بوصفه من أبرز الباحثين في العصر الحديث، و يعرض سيرته العلمية وإنتاجه الغزير الذي يجمع بين التأصيل التاريخي والتحليل النحوي والدلالي والتطبيق التعليمي، كما يبين منهجه القائم على الموازنة بين التراث النحوي والمنهج الحديثة، ويُبرز نقده للتقسيمات التقليدية كفكرة المدارس النحوية، وتركيزه على تحليله للظواهر النحوية باعتبارها ظواهر تخدم فهم المعنى. ويوضح المقال أيضا تنوع أساليب أبي المكارم التأويلية، ويقارن منهجه بمنهج اللغويين القدامى والمحدثين، مبرزاً عدم اكتفائه بالجوانب النظرية وحرصه على التطبيقات العملية. ويخلص إلى أن جهود أبي المكارم أسهمت في تجديد الدراسات النحوية وتيسير تعليم النحو، وعلى الرغم من الملاحظات النقدية التي استهدفت منهجه فإن إسهاماته تبقى ذات قيمة كبيرة.

الكلمات المفتاحية: النحو ؛ أصول النحو ؛ التأويل النحوي ؛ التأويل الدلالي ؛ الظواهر اللغوية .

Abstract: This article explores the grammatical interpretation of Ali Abi al-Makarem through his various works. We highlighted his position as one of the most prominent researchers in the modern era. The study presents his academic biography and extensive output that combines historical contextualisation, grammatical and semantic analysis, and educational application. The article also outlines his approach based on balancing grammatical heritage with modern methodologies. It emphasizes his critique of traditional divisions, such as the concept of grammatical schools, and his focus on analyzing grammatical phenomena as elements that serve the understanding of meaning. Additionally, the article clarifies the diversity of Abi al-Makarem's interpretive methods and compares his approach with those of both classical and modern linguists, highlighting his refusal to limit himself to theoretical aspects and his commitment to practical applications. The article concludes that Abi al-Makarem's efforts contributed to renewing grammatical studies and facilitating the teaching of grammar. Despite the critical observations directed at his methodology, his contributions remain highly valuable.

Keywords: Grammar ; Foundations of Grammar ; Grammatical Interpretation ; Semantic Interpretation ; Linguistic Phenomena.

مقدمة

على الرغم من الاهتمام الكبير الذي حظي به التأويل النحوي في التراث العربي، فإن الدراسات الحديثة لم تُحط بجميع جوانبه، خاصة فيما يتعلق بالمناهج التي اعتمدها النحاة في التأويل. ويعد الدكتور علي أبو المكارم من أبرز الباحثين المهتمين بالتأويل النحوي في العصر الحديث، حيث قدم إسهامات متميزة في تحليل أساليبه، وسعى إلى دراسة منهجية النحاة في التعامل مع الظواهر النحوية المختلفة، فما هي جهود علي أبي المكارم في التأويل النحوي؟ وما الأساليب التي اعتمدها في تأويل الظواهر النحوية؟

أولاً: التعريف بعلي أبي المكارم وبأبرز مؤلفاته

هو علي محمد أبو المكارم عالم لغوي مصري بارز، وُلد في 9 فيفري 1936م بمدينة القاهرة، وتوفي في 24 يوليو 2015م، نشأ في بيئة علمية ثرية، حيث تلقى تعليمه الأول في مدارس القاهرة، ثم التحق بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة، وهي المؤسسة التي كان لها دور كبير في صقل موهبته اللغوية. حصل على درجة الليسانس في عام 1961م بتقدير جيد جداً مع مرتبة الشرف، متصدراً دفعته طوال سنوات الدراسة، مما يعكس تفوقه الأكاديمي المبكر.

بعد تخرجه، عُيِّن معيداً في قسم النحو والصرف والعروض بكلية دار العلوم، ثم بدأ مسيرته البحثية بحصوله على درجة الماجستير عام 1964م برسالة بعنوان "الحذف والتقدير في النحو العربي" بتقدير ممتاز، وهي الدراسة التي أظهرت اهتمامه المبكر بظواهر اللغة وتحليلها النحوي. ثم نال درجة الدكتوراه بعنوان "مناهج البحث عند النحاة العرب"، وهي رسالة عُدت من الدراسات الرائدة في تاريخ النحو ومناهجه، شغل مناصب أكاديمية مرموقة، منها وكيل كلية دار العلوم لشؤون التعليم والطلاب، ثم عميداً للكلية، فضلاً عن دوره كمقرر للجنة العلمية الدائمة للغة العربية وأداها بالمجلس الأعلى للجامعات المصرية.

تميز أبو المكارم بإنتاجه العلمي الغزير، حيث أُلِف أكثر من ثمانية عشر كتاباً، ونشر ما يزيد عن ستة وخمسين بحثاً في مجالات علمية محكمة، من أبرز مؤلفاته "أصول التفكير النحوي"، وهو كتاب قدم فيه تأصيلاً علمياً للفكر النحوي بمنهجية حديثة، و"تقويم الفكر النحوي" الذي تناول تقييم التراث النحوي بعين ناقدة، و"الحذف والتقدير في النحو العربي" الذي عكس اهتمامه بتحليل الظواهر اللغوية، كما أُلِف "تاريخ النحو العربي حتى أواخر القرن الثاني الهجري"، وهو عمل تاريخي معمق، و"المدخل إلى دراسة النحو العربي" في جزئين استهدف فيهما تبسيط النحو للدارسين.

شملت مؤلفاته أيضاً أعمالاً أخرى مثل "الجملة الفعلية"، "الجملة الاسمية"، "التركييب الإسنادية في العربية"، و"تعليم النحو العربي، بحث في المنهج"، وهي كتب تجمع بين التحليل النظري والتطبيق العملي. هذا التنوع في الإنتاج يعكس شمولية رؤيته واهتمامه بتطوير الدراسات النحوية من جوانب متعددة، سواء في التأصيل التاريخي أو التحليل البنيوي أو التعليم.

ثانياً: منهج علي أبي المكارم في التأويل النحوي

اتسم منهج علي أبو المكارم في التأويل النحوي بالجمع بين التحليل العلمي الحديث والاستناد إلى التراث النحوي العربي، مع سعي دائم لتجاوز التكرار التقليدي لآراء النحاة القدماء. ركز على إعادة قراءة النصوص اللغوية بمنظور جديد يتماشى مع التطورات الفكرية والحياتية، مع الحفاظ على الدقة المنهجية والموضوعية في التحليل. في كتابه "أصول التفكير النحوي"، رفض الروايات التقليدية التي تُنسب نشأة النحو إلى أفراد بعينهم كأبي الأسود الدؤلي، معتبراً أن النحو تطور كعلم تراكمي عبر أجيال متعاقبة. (علي أبو المكارم، 1972، ص 15-16)

نقد أبو المكارم فكرة وجود مدارس نحوية متميزة منهجياً مثل "البصرية" و"الكوفية"، مؤكداً أن الفروق بينهما كانت جزئية وليسست جوهرية، واستبدل مصطلح "المدارس" بـ"التجمعات النحوية". هذا الطرح يعكس رؤيته النقدية التي تجنبت التقسيمات الصلبة، وشدد على وحدة الأصول العامة للتفكير النحوي، معترفاً بالتأثيرات الثقافية المتعددة التي أثرت في تطور النحو في عصور لاحقة كعهد الخليل بن أحمد وسيبويه. (علي أبو المكارم، 2005، ص 30)

اهتم أبو المكارم بتحليل الظواهر اللغوية مثل الحذف والزيادة والتقدير، كما يتضح في كتابه "الحذف والتقدير في النحو العربي". اعتبر هذه الظواهر أدوات تأويلية أساسية لفهم النصوص واستخلاص دلالاتها، مع الاحتكام إلى السياق اللغوي وقواعد النحو. هذا التحليل لم يقتصر على الجانب النظري، بل امتد إلى تطبيقات عملية تُظهر كيف تؤثر هذه الظواهر في بنية الجملة ومعناها. (علي أبو المكارم، 1964، ص 34-35)

سعى أبو المكارم إلى التوفيق بين التراث النحوي والمناهج اللغوية الحديثة، مستفيداً من النظريات الغربية دون الوقوع في التبعية المطلقة لها. و قدم رؤية متجددة تهدف إلى تبسيط النحو وجعله أداة فاعلة في تعليم اللغة وفهم النصوص، مع التركيز على البنية التحتية للجملة وعلاقاتها الإسنادية، مما جعله نموذجاً للتجديد في التأويل النحوي.

من أبرز سمات منهجه التطبيق العملي، حيث لم يكتفِ بالتحليل النظري، بل قدم نماذج تطبيقية في كتبه مثلما فعل في كتابيه "الجملة الفعلية" و"الجملة الاسمية"، موضحاً كيف يمكن للدارس أن يستخدم التأويل النحوي لفهم النصوص الأدبية والدينية واليومية. هذا النهج جعل أعماله مرجعاً أساسياً للباحثين والمدرسين على حد سواء.

ثالثاً: تحليل أساليب التأويل عند علي أبي المكارم

1. أبرز الأساليب التأويلية في أعماله:

يُعد التحليل البنيوي للجملة من أبرز أساليب علي أبي المكارم التأويلية، حيث ركز على تفكيك الجملة إلى مكوناتها الأساسية (الفاعل، الفعل، المفعول، إلخ) لفهم العلاقات الإسنادية التي تربطها. وفي كتابه "التركيب الإسنادية في العربية" قدم تحليلات دقيقة تُظهر كيف تتشكل الجملة العربية بناءً على هذه العلاقات، مع التأكيد على أن السياق اللغوي يحدد التأويل الصحيح. على سبيل المثال، في تحليله لجملة مثل "كتب محمد الرسالة"، يوضح كيف يعتمد دور "محمد" كفاعل على موقعه في البنية الإسنادية، مع مراعاة الدلالات التي قد تتغير إذا تغير السياق، كما في حالة الجمل الخبرية أو الإنشائية. (علي أبو المكارم، 2007، ص 29-30)

برز أسلوب التأويل الدلالي كأحد ركائز منهجه، حيث اهتم باستخلاص المعاني الكامنة وراء الظواهر النحوية مثل الحذف والتقدير والزيادة. في كتابه "الحذف والتقدير في النحو العربي"، أكد أن الحذف ليس مجرد إغفال عنصر لغوي، بل أسلوب بلاغي ودلالي يُعزز المعنى ويجعل النص أكثر إيجازاً وتأثيراً. على سبيل المثال، في تحليله لجملة "جاء زيد"، يوضح أن تقدير جملة محذوفة مثل "من البيت" قد يكون ضرورياً لفهم الدلالة الكاملة بناءً على السياق، مما يُظهر قدرة النص العربي على الإيحاء بمعانٍ إضافية دون تصريح. (علي أبو المكارم، 1964، ص 60)

استخدم أبو المكارم أسلوب النقد التاريخي في التأويل، حيث أعاد تقييم المفاهيم النحوية التقليدية في ضوء تطورها عبر العصور. في كتابه "تاريخ النحو العربي حتى أواخر القرن الثاني الهجري"، حلل كيف نشأت القواعد النحوية استجابةً لاحتياجات المجتمع العربي، مثل الحفاظ على سلامة اللغة بعد اختلاط العرب بالأعاجم. واعتبر أن التأويل يجب أن يكون مرناً ليتماشى مع هذا التطور، بدلاً من التقيد بالتعريفات القديمة. على سبيل المثال، نقد فكرة تقسيم النحاة إلى مدارس

متباينة، موضحاً أن الاختلافات كانت نتيجة تنوع السياقات الثقافية وليست انقسامات جوهرية. (علي أبو المكارم، 1971، ص40-41)

اعتمد أيضاً على الأسلوب التربوي في التأويل، حيث ركز على تبسيط النحو للطلاب والدارسين من خلال تقديم قواعده بطريقة منهجية وعملية. وفي كتابه "المدخل إلى دراسة النحو العربي" استخدم أمثلة واضحة من القرآن الكريم والشعر الجاهلي، مثل تحليل جملة "إن الله غفور رحيم"، ليوضح كيف يمكن تأويل الجملة الاسمية بناءً على قواعد الإعراب والسياق (علي أبو المكارم، 2006، ص15)، هذا الأسلوب جعل النحو أداة تعليمية فعالة، بعيداً عن التعقيدات التقليدية التي كانت تثقل كاهل المتعلمين.

تميز أبو المكارم بأسلوب التأويل السياقي، حيث أكد أن فهم النص لا يمكن أن ينفصل عن سياقه اللغوي والثقافي والاجتماعي. وفي كتابه "تقويم الفكر النحوي" طبق هذا الأسلوب على تحليل النصوص القديمة، موضحاً أن التأويل الصحيح يتطلب مراعاة الظروف التاريخية والثقافية التي أنتج فيها النص؛ على سبيل المثال في تحليله لاختلافات النحاة حول إعراب بعض الآيات القرآنية مثل "إن هذان لساحران" أشار إلى أن التفسيرات المختلفة تعكس السياقات التي عاشها النحاة، مما يبرز أهمية السياق في توجيه التأويل (علي أبو المكارم، 2005، ص51).

أضاف أبو المكارم أسلوب التأويل التطبيقي، حيث ربط التأويل النحوي بالتطبيق العملي في فهم النصوص المتنوعة، سواء أكانت دينية، أو أدبية، أو يومية. وفي كتابه "الجملة الفعلية" قدم نماذج تحليلية لجمل مثل "يخرج القوم من ديارهم"، موضحاً كيف يمكن للدارس أن يستخدم التأويل النحوي لفهم البنية والدلالة معاً (علي أبو المكارم، 1982، ص31-32). هذا الأسلوب جعل أعماله مرجعاً عملياً للمعلمين والباحثين، حيث قدم أدوات ملموسة لتطبيق النحو في الحياة اليومية.

2. مقارنة بين منهجه ومنهج غيره من النحاة :

بالمقارنة مع سيبويه؛ نجد أن منهج أبي المكارم يتميز بالطابع الحديث والنقدي، وصاحب "الكتاب" ركز على وصف اللغة العربية بناءً على السماع من البدو، مع اعتماد القياس كأداة لاستنباط القواعد، كما في تحليله للجمل مثل "ضرب زيد عمراً". أما أبو المكارم فقد تجاوز الوصف إلى إعادة تقييم التراث النحوي، معتبراً أن بعض قواعد سيبويه كانت مشروطة باحتياجات عصره، مثل الحاجة إلى توحيد النطق القرآني. وفي كتابه "أصول التفكير النحوي" ينتقد أبو المكارم الاعتماد المطلق على القياس دون مراعاة التطور اللغوي (علي أبو المكارم، 1972، ص27-28)، مما يجعل منهجه أكثر مرونة وتكيفاً مع العصر الحديث.

مقارنةً بالخليل بن أحمد الفراهيدي؛ يظهر منهج أبو المكارم أكثر شمولية في التأويل النحوي؛ فالفراهيدي ركز على النظام الصوتي والبنية الإيقاعية للغة، كما في دراسته للأوزان الشعرية، وربط النحو بالصوتيات في تحليل ظواهر مثل الإدغام. أما أبو المكارم فقد وسّع التأويل ليشمل الدلالة والبنية والسياق، كما في تحليله لظاهرة الحذف التي ربطها بالمعنى لا بالصوت فحسب. على سبيل المثال؛ في كتابه "الحذف والتقدير" يرى أن الحذف في جمل مثل "قام زيد" قد يُحيل إلى دلالة إضافية بناءً على السياق، بينما يقتصر تحليل الفراهيدي على الجانب الصوتي. (علي أبو المكارم، 1964، ص69-70)

ومقارنةً بابن جني؛ الذي اشتهر بمنهجه الفلسفي في التأويل، نجد أن أبا المكارم يميل إلى التطبيق العملي بدلاً من التجريد، وابن جني في "الخصائص" يربط القواعد النحوية بعلم منطقي وفلسفي، كما في تحليله للإعراب كظاهرة تعكس النظام الكوني، أما أبو المكارم فيرى أن التأويل يجب أن يخدم فهم النصوص بشكل مباشر، كما في كتابه "الجملة الاسمية"، حيث

يركز على وظيفة الجملة في النص بدلاً من البحث عن عللها المنطقية. على سبيل المثال؛ في تحليل جملة "اليوم الجمعة"، يُبرز أبو المكارم الوظيفة الإخبارية، بينما يخوض ابن جني في تبرير إعرابها بعلة فلسفية. (علي أبو المكارم، 2011، ص 23)

مقارنةً بمحمود شاعر؛ الناقد واللغوي الحديث، يشترك أبو المكارم معه في الاهتمام بالتراث، لكن شاعر ركز على الجوانب الأدبية والنقدية للغة، كما في تحليلاته للشعر الجاهلي (محمود محمد شاعر، 1972، ص 34-35). أما أبو المكارم فاتجه إلى التأويل النحوي بمنظور أكاديمي يهدف إلى فهم بنية النصوص ودلالاتها، في حين يحلل شاعر بيت شعر لإبراز جمالياته البلاغية، يركز أبو المكارم في كتابه "تقويم الفكر النحوي" على تحليل البنية النحوية لهذا البيت، مثل إعراب الأفعال والأسماء، ليوضح كيف تُسهم في إنتاج المعنى. (علي أبو المكارم، 2005، ص 62)

مقارنةً بإبراهيم أنيس؛ اللغوي المعاصر الذي ركز على الدراسات الصوتية واللهجات، يبرز تميز أبي المكارم في التأويل النحوي التقليدي مع لمسة حديثة. وإبراهيم أنيس في كتابه "في اللهجات العربية" اهتم باللهجات وتطورها في المجتمعات العربية. (إبراهيم أنيس، 1992، ص 11-13)، بينما حافظ أبو المكارم على جذور النحو العربي مع محاولة تطويره ليواكب العصر. على سبيل المثال؛ في كتابه "تعليم النحو العربي"، قدم أبو المكارم منهجاً تعليمياً يجمع بين قواعد النحو التقليدية وأساليب التحليل الحديثة، بينما يركز أنيس على تحليل النطق واللهجات دون الخوض في التأويل النحوي العميق.

مقارنةً بتمام حسان؛ اللغوي الحديث الذي اشتهر بمنهجه اللساني في تحليل اللغة العربية، يظهر منهج أبي المكارم أكثر تركيزاً على التراث النحوي مع دمج عناصر حديثة. وتمام حسان في كتابه "اللغة العربية: معناها ومبناها" اعتمد المناهج اللسانية الغربية مثل التحليل البنيوي والتوليدي. (تمام حسان، 1994، ص 86)، بينما حافظ أبو المكارم على المنهج النحوي التقليدي مع إدخال تحسينات منهجية. على سبيل المثال، في تحليل الجملة الاسمية، يركز حسان على التحليل اللساني للمعنى، بينما يُبرز أبو المكارم في كتابه "الجملة الاسمية" البنية النحوية مع مراعاة السياق التاريخي والثقافي، بهذا يتضح أن أساليب أبو المكارم التأويلية تميزت بتنوعها وشموليتها، حيث جمع بين التحليل البنيوي، التأويل الدلالي، النقد التاريخي، والتطبيق العملي، مع تفردته عن النحاة القدامى والمعاصرين برؤية تجمع بين احترام التراث والسعي لتطويره، مما جعله رائداً في إثراء الدراسات النحوية بمنظور حديث وعملي.

رابعاً: أثر جهود علي أبي المكارم في الدراسات النحوية الحديثة

ترك علي أبو المكارم بصمة واضحة في إعادة تأصيل الفكر النحوي ضمن الدراسات النحوية العربية الحديثة، حيث قدم في كتابه "أصول التفكير النحوي" رؤية منهجية شاملة تهدف إلى إعادة فهم نشأة النحو وتطوره بطريقة علمية بعيدة عن الأساطير أو الروايات التقليدية. فقد رفض الفكرة الشائعة التي تُنسب بدايات النحو إلى شخصيات مثل أبي الأسود الدؤلي كحدث فردي، واعتبر أن النحو علم تطور تدريجياً نتيجة تفاعل المجتمع العربي مع التحديات اللغوية والثقافية بعد الفتوحات الإسلامية (علي أبو المكارم، 1973، ص 9-10). هذا الطرح أثر بعمق في الدراسات النحوية اللاحقة، حيث ألهم الباحثين للنظر إلى النحو كظاهرة ديناميكية تتفاعل مع السياقات التاريخية والاجتماعية، بدلاً من اعتباره مجرد قواعد ثابتة مورثة من الماضي. كما شجع هذا المنهج على إجراء دراسات مقارنة بين النحو العربي وعلوم اللغة الأخرى، مما فتح آفاقاً جديدة في البحث اللغوي

كان لأبي المكارم دور بارز في تبسيط النحو وتطوير مناهج تدريسه، حيث سعى إلى جعل النحو مادة دراسية يسهل استيعابها للطلاب بعيداً عن التعقيدات التقليدية التي كانت تُثقل كاهل المتعلمين. فقد قدم أساليب تعليمية مبتكرة تجمع بين التراث النحوي العربي والمناهج التربوية الحديثة، مع التركيز على تحليل الجمل بطريقة عملية ومنظمة، وفهم وظيفة كل عنصر

فيها بطريقة مبسطة. هذا النهج انعكس على مناهج تدريس النحو في الجامعات والمدارس المصرية، حيث أصبحت كتبه مرجعاً رئيسياً للمعلمين، كما عمد إلى تطوير كتب دراسية تعتمد على التحليل العملي بدلاً من الحفظ النظري، مما جعل النحو أكثر جاذبية للأجيال الجديدة.

استجاب أبو المكارم لحاجة تسهيل النحو، فأصدر مجموعة من الكتب التي عالجت مشكلة التسهيل من وجهتي نظر: الأولى نظرية حيث حاول توضيح الأسس والمعايير لتسهيل النحو، والثانية تطبيقية حيث طبق هذه الأسس في كتاب يمكن أن يكون مرجعاً لمنطلي النحو (سالم خليل الأقطش، 2013، ص 256). هذا التوجه يبرز تفرد أبو المكارم في تحويل النحو من علم نظري معقد إلى مادة تعليمية عملية، حيث جمع بين وضع أسس نظرية للتسهيل وتطبيقها في أمثلة عملية، مما عزز تأثيره في تطوير المناهج التعليمية وجعل أعماله نموذجاً للمعلمين والباحثين على حد سواء.

أسهم أبو المكارم في تعزيز التحليل الدلالي ضمن الدراسات النحوية، حيث أبرز في كتابه "الحذف والتقدير في النحو العربي" أهمية الظواهر النحوية كأدوات لاستخلاص المعاني الكامنة وراء النصوص. فقد رأى أن الحذف والتقدير ليسا مجرد قواعد تركيبية، بل هما وسيلتان لإثراء الدلالة وتعميق التأثير البلاغي للغة، فعلى سبيل المثال، في تحليله لآية مثل "والضحى والليل إذا سجى"، أوضح كيف يُعزز الحذف من إيجاز النص ويُحيل إلى معانٍ ضمنية تتطلب التأمل (علي أبو المكارم، 2008، ص 198). هذا التوجه شجع الباحثين اللاحقين على الربط بين النحو والبلاغة بشكل أكثر تكاملاً، حيث أصبح النحو يُنظر إليه كجسر لفهم الدلالات اللغوية العميقة، مما أدى إلى ظهور دراسات حديثة تربط بين التحليل النحوي والتفسير البلاغي للنصوص الدينية والأدبية.

لقد اهتم أبو المكارم بـ"التطور الدلالي الذي حصل لبعض التعبيرات النحوية مثل القياس والمسح والحكم والتفسير" (سالم خليل الأقطش، 2013، ص 264)، مما يعكس رؤيته العميقة للنحو كعلم لا يقتصر على التركيب بل يمتد إلى فهم الدلالة عبر الزمن. هذا التركيز على التغيرات الدلالية للمصطلحات النحوية أثر في الدراسات اللاحقة التي سعت إلى ربط النحو بالسياقات التاريخية والثقافية، مما جعل أعماله مرجعاً لفهم كيفية تطور اللغة العربية كمنظومة حية.

كان لجهوده أثر ملحوظ في إثراء الدراسات التاريخية للنحو، حيث قدم "تاريخ النحو العربي حتى أواخر القرن الثاني الهجري" تحليلاً معمقاً لنشأة النحو وتطوره في سياقاته الاجتماعية والثقافية. فقد تناول كيف أثر اختلاط العرب بالأعاجم بعد الفتوحات في تدوين قواعد اللغة، وربط بين تطور النحو والحاجة إلى الحفاظ على سلامة القرآن الكريم والشعر الجاهلي. (علي أبو المكارم، 1971، ص 42-43) هذا العمل لم يكن مجرد سرد تاريخي، بل تحليل نقدي أظهر العوامل التي شكلت النحو، مما جعله مرجعاً أساسياً للدراسات اللاحقة التي تناولت العلاقة بين اللغة والمجتمع. كما ألهم هذا النهج باحثين لدراسة تأثير العوامل الخارجية، مثل التفاعل مع اللغات الأخرى (اليونانية والفارسية)، على تطور النحو في العصور الوسطى.

أثر أبو المكارم في تقويم التراث النحوي من خلال كتابه "تقويم الفكر النحوي"، حيث قدم نقداً منهجياً لآراء النحاة القدامى مع اقتراحات لتطويرها بما يتناسب مع متطلبات العصر الحديث. فقد تناول قضايا مثل الخلاف بين البصريين والكوفيين، معتبراً أنها لم تكن انقسامات جوهرية بقدر ما كانت اختلافات جزئية تعكس تنوع السياقات (علي أبو المكارم، 2005، ص 51)، هذا النهج النقدي شجع الباحثين على إعادة قراءة التراث بعين تحليلية، مما أدى إلى ظهور أبحاث حديثة تسعى إلى تصحيح المفاهيم الخاطئة حول المدارس النحوية وإعادة تقييم إسهامات النحاة في ضوء المعطيات التاريخية واللغوية الجديدة. كما ساهم في تعزيز فكرة أن النحو علم قابل للتطور، وليس مجرد إرث ثابت يُحفظ دون نقاش.

لاحظ الأقطش أن أبو المكارم قد حاول الحكم على أقوال الأسلاف والتوصل إلى نتائج تقنع العلماء، مما يبرز دوره في تقويم التراث بطريقة علمية تهدف إلى إقناع الباحثين المعاصرين بصحة تحليلاته. هذا النهج النقدي لم يقتصر على الرفض أو القبول السلبي لآراء النحاة القدماء، بل سعى إلى إعادة تقييمها بمنهج تحليلي يعتمد على السياق التاريخي، مما جعل أعماله مرجعاً للدراسات التي تسعى إلى تجديد النحو مع الحفاظ على أصالته.

ترك أبو المكارم أثراً كبيراً في ربط النحو بالدراسات الأكاديمية المعاصرة من خلال دوره كأكاديمي بارز. فقد شغل مناصب مثل وكيل كلية دار العلوم، ثم عميداً لها، ومقرراً للجنة العلمية الدائمة للغة العربية بالمجلس الأعلى للجامعات المصرية، مما مكنه من توجيه البحث العلمي نحو دراسة النحو بمنهج حديثة. أشرف على العديد من الرسائل العلمية (ماجستير ودكتوراه) التي تناولت قضايا النحو من زوايا جديدة، مثل تحليل النصوص الأدبية والدينية باستخدام أدوات معاصرة. هذا الدور الأكاديمي أنتج أجيالاً من الباحثين تأثروا بأفكاره، حيث طبقوا منهجه في دراساتهم، مما جعل أثره يتجاوز كتبه إلى التأثير المباشر في المؤسسات التعليمية والبحثية.

أثر أيضاً في تطوير المنهج الإسنادي في الدراسات النحوية، حيث ركز في كتابه "التركيب الإسنادية في العربية" على تحليل العلاقات بين مكونات الجملة بطريقة منهجية (علي أبو المكارم، 2007، ص 128). هذا التركيز على الإسناد (العلاقة بين الفعل والفاعل أو المبتدأ والخبر) ألهم دراسات لاحقة تناولت بنية الجملة العربية بعمق، وربطت بين النحو والمنطق اللغوي، مما ساهم في تقديم رؤى جديدة حول كيفية عمل اللغة العربية كمنظومة متكاملة.

خامساً: النقد والتقويم لجهود علي أبي المكارم في التأويل النحوي

يُشاد بجهود أبو المكارم في الجمع بين التراث والحداثة، حيث نجح في تقديم رؤية تجديدية للنحو دون التخلي عن جذوره العربية. في كتابه "أصول التفكير النحوي"، قدم تحليلاً نقدياً للتراث مع اقتراحات لتطويره، مما جعله نموذجاً للباحثين في كيفية الموازنة بين احترام الموروث ومواكبة العصر. على سبيل المثال، دعا إلى إعادة النظر في بعض القواعد التقليدية التي لم تعد تلبي احتياجات اللغة المعاصرة، مع الحفاظ على الأسس التي تميز النحو العربي. لكن بعض النقاد يرون أن هذا التوازن لم يكن مثاليًا، حيث مال في بعض الأحيان إلى التأصيل التاريخي على حساب تقديم حلول عملية تُطبق في السياقات الحديثة، مما جعل منهجه يفتقر إلى بعض الجرأة في التجديد.

يؤكد الأقطش أن أبو المكارم حاول "إعادة قراءة التراث بطريقة تناسب روح العصر" (سالم خليل الأقطش، 2013، ص 265)، لكن هذا الجهد لم يترجم دائماً إلى حلول عملية تتجاوز التحليل التاريخي. هذا النقد يعكس وجهة نظر بعض الباحثين الذين رأوا أن أبو المكارم، رغم عبقريته في الجمع بين التراث والحداثة، لم يقدم إصلاحات جذرية كافية لتلبية احتياجات اللغة العربية في العصر الحديث، مما جعل أثره يظل ضمن إطار تحليلي أكثر منه إصلاحي.

يُنتقد أبو المكارم بسبب محدودية اعتماده على المناهج اللسانية الحديثة، مثل التحليل التوليدي الذي طوره نوام تشومسكي أو التحليل البنيوي الذي اشتهر به فيرناند دي سوسير. بينما استفاد من بعض الأفكار الحديثة، مثل التركيز على البنية التحتية للجملة، ظل منهجه متجذراً في الإطار النحوي العربي التقليدي. على سبيل المثال، في كتابه "التركيب الإسنادية"، ركز على تحليل الجملة بطريقة تقليدية دون الاستفادة الكاملة من النظريات اللسانية الغربية التي كانت تُطبق في ذلك الوقت على لغات أخرى. هذا الأمر جعل بعض الباحثين يرون أن أعماله لم تواكب التطورات اللسانية العالمية بشكل كافٍ، مما قلل من قدرتها على التنافس مع الدراسات اللغوية الحديثة خارج الإطار العربي.

يُثنى على أبو المكارم لتركيزه على التطبيق العملي، كما في كتابه "المدخل إلى دراسة النحو العربي"، حيث قدم أمثلة عملية واضحة جعلت النحو أكثر سهولة للطلاب، مثل تحليل جملة "إن الله غفور رحيم" بطريقة مبسطة تُبرز وظيفة كل عنصر. هذا النهج جعل النحو أداة تعليمية فعالة، وحظي بتقدير المعلمين والمدرسين. لكن بعض النقاد يرون أن هذا التبسيط جاء على حساب العمق النظري، حيث ركز على الجانب التربوي أكثر من تقديم تحليلات معمقة تلي احتياجات الباحثين المتخصصين. على سبيل المثال، لم يخوض في قضايا معقدة مثل العلل النحوية أو التحليل المنطقي للبنية اللغوية، مما جعل أعماله تُوصف أحياناً بأنها موجّهة للمبتدئين أكثر من المتقدمين.

يُنتقد أحياناً لعدم الخوض الكافي في النصوص غير التقليدية، مثل اللغة العامية أو النصوص الحديثة (الروايات، المقالات الصحفية). فقد ركز في أعماله، مثل "الجملة الفعلية" و"الجملة الاسمية"، على تحليل النصوص الكلاسيكية كالقرآن الكريم والشعر الجاهلي، مما جعل منهجه يبدو منفصلاً عن تطور اللغة العربية في سياقاتها المعاصرة. على سبيل المثال، لم يتناول كيفية تطبيق التأويل النحوي على العامية المصرية أو اللهجات العربية الأخرى، كما فعل لغويون مثل إبراهيم أنيس في دراسته للهجات. هذا النقد يُبرز محدودية أثره في دراسة اللغة الحية، مما جعل بعض الباحثين يرون أن جهوده ظلت محصورة في الإطار التقليدي دون التمدد إلى السياقات اليومية.

يُقدر أثر أبو المكارم في تعزيز النقد التاريخي، كما في كتابه "تقويم الفكر النحوي"، حيث قدم قراءة نقدية لآراء النحاة القدامى، مثل تقييمه للخلافات بين البصريين والكوفيين، ورأى أنها تعكس تنوع السياقات أكثر من كونها انعكاسات جوهرية. هذا النهج شجع الباحثين على إعادة تقييم التراث بعين ناقدة. لكن بعض النقاد يرون أن نقده لم يكن جذرياً بما فيه الكفاية، حيث احتفظ باحترام كبير للنحاة القدامى دون تقديم تغييرات جذرية في البنية النحوية أو إعادة صياغتها بشكل كامل. على سبيل المثال، لم يقترح نظاماً نحوياً جديداً يحل محل القواعد التقليدية، مما جعل منهجه يُوصف بأنه محافظ نسبياً مقارنة ببعض اللغويين الحديثين الذين دعوا إلى إصلاحات أكثر جرأة.

يرى الأقطش أن أبو المكارم "حاول جمع الجوانب المتناثرة للظواهر اللغوية في كتاب منظم يمكن أن يكون مرجعاً للعلماء" (سالم خليل الأقطش، 2013، ص 266)، لكن هذا التركيز على التنظيم والتأصيل لم يترافق دائماً مع نقد جذري للتراث. هذا الملاحظة تؤكد وجهة النظر التي ترى أن جهوده، رغم قيمتها في تقويم التراث، لم تتجاوز حدود التحليل التاريخي إلى إعادة هيكلة النحو بما يتناسب مع الاحتياجات المعاصرة بشكل كامل.

يُشاد بجهوده في الربط بين النحو والبلاغة، حيث أبرز في كتابه "الحذف والتقدير" العلاقة الوثيقة بين الظواهر النحوية والمعاني البلاغية. فقد أوضح كيف تُسهم ظواهر مثل الحذف في تعزيز الإيجاز والتأثير البلاغي، كما في تحليله لآيات مثل "والفجر وليالٍ عشر". هذا الربط جعل النحو أداة لفهم النصوص الأدبية بعمق أكبر. لكن بعض الدارسين يرون أن هذا الربط لم يكن شاملاً بما يكفي، حيث لم يتناول بالتفصيل العلاقة بين النحو وعلوم أخرى مثل الصرف، العروض، أو اللسانيات التطبيقية. على سبيل المثال، لم يُعمق تحليل العلاقة بين النحو والصرف في تشكيل الجملة، مما جعل أثره يظل محدوداً في نطاق معين من الدراسات النحوية دون التوسع إلى مجالات لغوية أخرى.

يُنتقد أحياناً لعدم التركيز الكافي على التكنولوجيا الحديثة في تحليل النصوص، مثل استخدام الحوسبة اللغوية أو الذكاء الاصطناعي الذي بدأ يظهر في أواخر القرن العشرين. بينما كان من الممكن أن يستفيد من هذه الأدوات لتطوير منهجه في التأويل، ظلت أعماله تعتمد على التحليل اليدوي التقليدي، كما في كتابه "الجملة الاسمية". هذا النقد يعكس رؤية بعض الباحثين بأن أبو المكارم لم يستغل الإمكانيات التكنولوجية المتاحة في عصره لتحسين تحليل النصوص النحوية، مما جعل أثره يبدو تقليدياً نسبياً مقارنة ببعض اللغويين المعاصرين الذين اعتمدوا التكنولوجيا.

بذلك، يتضح أن جهود علي أبو المكارم كان لها أثر عميق في الدراسات النحوية الحديثة من خلال تأصيلها، تبسيطها، تقويمها، وربطها بالسياقات التاريخية والدلالية، رغم الانتقادات التي تُشير إلى محدودية مواكبته للتطورات اللسانية العالمية، أو تركيزه على النصوص التقليدية دون الحديثة، أو عدم استغلاله للتكنولوجيا. مع ذلك، تبقى إسهاماته ركيزة أساسية في تطوير النحو العربي وتعليمه، ومرجعاً لا غنى عنه للدارسين والباحثين.

خاتمة:

كان التأويل النحوي عند النحاة الأوائل متصلاً بالبحث عن علل الظواهر النحوية، خاصة في ضوء كثرة الاستعمالات المختلفة في نصوص القرآن الكريم والشعر العربي القديم. وقد كان التأويل في هذه المرحلة مرتبطاً بأصول النحو، حيث كان النحاة يلجؤون إليه لتبرير المخالفات القليلة للقاعدة العامة، أو لدفع التعارض بين الظاهر النحوي والقواعد القياسية.

مع تطور الدراسات اللغوية، توسعت مناهج التأويل النحوي عند اللغويين المحدثين، حيث انتقل من كونه مجرد وسيلة لتبرير المخالفات النحوية إلى كونه أداة تحليلية تستند إلى مبادئ علم اللغة الحديث، وقد وظف النحاة المحدثون التأويل النحوي في الدراسات التطبيقية واللسانية.

لقد تفرد الدكتور علي أبو المكارم بمنهجه الذي جمع بين التحليل العلمي الحديث والاستناد إلى التراث النحوي، مع تقديم رؤية نقدية لآراء النحاة القدامى ومقارنتها بالمناهج المعاصرة، وقد تبين أنه لم يكتفِ بالجانب النظري، بل امتدت إسهاماته إلى التطبيق العملي، مما جعل أعماله مرجعاً أساسياً للباحثين والمدرسين وغيرهم، ومن خلال مؤلفاته تتجلى آثار جهوده على الدراسات النحوية الحديثة، حيث ساهم في إعادة تأصيل الفكر النحوي، وتبسيط تعليم النحو، وتعزيز التحليل الدلالي، وإثراء الدراسات التاريخية والنقدية للنحو العربي.

ورغم بعض الانتقادات التي وُجّهت إلى منهجه، مثل محدودية اعتماده على المناهج اللسانية الحديثة، فإن إسهاماته تبقى ذات قيمة كبيرة، حيث نجح في تسليط الضوء على أهمية التأويل النحوي كمنهج تحليلي لا غنى عنه.

المصادر والمراجع:

- 1 - إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط8، 1992
- 2 - تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، الدار البيضاء، المغرب، 1994
- 3 - سالم خليل الأقطش، جهود الدكتور علي أبو المكارم النحوية: دراسة وصفية تحليلية، رسالة دكتوراه تحت إشراف محمد حسن عواد، كلية الدراسات العليا، جامعة الأردن، 2013
- 4 - علي أبو المكارم، أصول التفكير النحوي، منشورات الجامعة الليبية، طرابلس، 1973.
- 5 - علي أبو المكارم، تاريخ النحو العربي حتى أواخر القرن الثاني الهجري، القاهرة الحديثة للطباعة، القاهرة، 1971
- 6 - علي أبو المكارم، تقويم الفكر النحوي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2005
- 7 - علي أبو المكارم، التراكيب الإسنادية في العربية، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2007
- 8 - علي أبو المكارم، الجملة الاسمية، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2011.
- 9 - علي أبو المكارم، الجملة الفعلية، دار المعارف، القاهرة، 1968.
- 10 - علي أبو المكارم، الحذف والتقدير في النحو العربي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2008 - 11 - علي أبو المكارم، المدخل إلى دراسة النحو العربي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2006
- 12 - محمود محمد شاكر، أباطيل وأسمار، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1972.